«حركة القوميين العرب»

قراءة جديدة لتجربة في ذمة التاريخ

فيصل جلول

ظلت تجربة «حركة القوميين العرب» بمنأى عن الاهتمام الدراسي الجدّي الى حد كبير والذي ساعد على تغييب هذه التجربة وعلى التقليل من أهميتها بل على نبذها، هو موقف قادتها المؤسسين الذين تحوّلوا بأكثريتهم الساحقة الى الوجهة الماركسية وموقف الخارجين منها وهم قد أصبحوا ماركسيين أيضاً بطريقة أو بأخرى.

باختصار شديد يمكن القول إن الموقف من «حركة القوميين العرب» انحصر في أن هذه التجربة «سيئة الذكر» أو «مشؤومة» أو أنها صارت في ذمة التاريخ، والذي يراجع بيانات الانشقاق عن «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» وريثة «حركة القوميين العرب» أو عن الحركة ذاتها يلاحظ بأن تلك البيانات تتنصل من الحركة تنصّلها من «فيروس» خطير أمام بريق الماركسية في حينه التي لم تصمد بدورها زمناً طويلاً، كل ذلك أدىّ الى تغييب تجربة «حركة القوميين العرب» والى إحاطتها بستار شديد من الكتمان واللااهتمام.

بدايات ظهور «حركة القوميين العرب»

نشأت «حركة القوميين العرب» كمحصلة لتجارب قادتها المؤسسين في عدة تنظيمات وجمعيات ذات منحى قومي تحرري، ويمكن القول إن الجامعة الأميركية وأجوائها كانت الميدان الذي، تحرك عليه قادة الحركة. بالإضافة إلى ذلك يمكن اعتبار ما سمي «بنكبة فلسطين» بمثابة العنصر الحاسم في ولادتها وانطلاقتها لاحقاً. أما التنظيمات والجمعيات المقصودة فانها على التوالي.

١) «كتائب الفداء العرب»

ارتبط نشوء «كتائب الفداء العربي» بشكل أساسي «بنكبة» فلسطين عام (١٩٤٨) وتشكلت الكتائب من

شباب في مطلع العشرين من أعمارهم وممن شاركوا في الحرب ضد إسرائيل « واكتشفوا الفارق الكبير بين قوة الصهاينة وضعف الجيوش العربية المجزأة[1] » وكان من أبرز مؤسسي « الكتائب » المذكورة ثلاثة من أهم قادة « حركة القوميين العرب » لاحقاً وهم « هاني الهندي » و« جهاد ضاحي » و« جورج حبش » رئيس الحركة أو أمينها العام وقد ضمت المنظمة مناضلين من مصر وسوريا والعراق وفلسطين. وكانت القاعدة السياسية التي ارتكزت إليها الكتائب « مقولة الوحدة القومية ورفض الصراع الطبقي[2] ».

أما على الصعيد التنظيمي فنجد بصمات « جيوسيبي مازيني » فقد تعلم الكتائبيون من تجربة « مازيني » في الجمعية الوطنية السرية الايطالية « كاربوناري » استعمال الأسماء المستعارة وكلمات السر وأساليب أساسية أخرى في عمل المنظمات السرية.

وقد ألهمهم بالإضافة الى « مازيني » « بسمارك » و« كافور » بمقولة الوحدة القومية ورفض الصراع الطبقي[3].

واستفاد « الكتائبيون » أيضاً من تجارب قياديين قدامى في هذا المجال، وبصورة خاصة من تجربة أحمد حسين (مصري) الذي أسس منظمة « القمصان الخضراء » قبل أن يساهم في تأسيس « الكتائب » ومع أن « حسين » هذا كان يركّز على مسألة الوطن المصري على حساب « الوحدة القومية » إلا أن تجربته العسكرية في تنظيم « القمصان الخضراء » كانت هي الأساس في برنامج « الكتائب » العسكري.

تركز عمل « كتائب الفداء العربي » على وضع الخطط لتدمير المؤسسات ولقتل الزعماء المسؤولين عن ضياع فلسطين عام (١٩٤٨)، فنفّذت عدداً من العمليات العسكرية منها: نسف الكنيس اليهودي في دمشق وقتل وجرح عدد من أعضائه. ونسف مدرسة الاليانس في بيروت. وإلقاء القنابل على عدد من مفوضي الولايات المتحدة وبريطانيا ومحاولة اغتيال المقدم سترلنك مراسل « التايمز » وموظف سياسي بريطاني سابق في شؤون القبائل. بعد ذلك توقفت العمليات العسكرية تمهيداً لوضع برنامج سياسي للمنظمة، ولكن خلافاً أساسياً سرعان ما نشب حول هذا الموضوع، وأعقبه انشقاق داخلي لم يمضِ عليه وقت طويل حتى قامت عناصر من المنظمة بمحاولة اغتيال أديب الشيشكلي معاون رئيس أركان الجيش السوري في حينه، لكن فشل المحاولة أدّى الى كشف المنظمة السرية وضربها، وقد حُلّت المنظمة كلية قبل العام[4] (١٩٥٠).

بعد انهيار تجربة « الكتائب » انتقل « قادة الحركة » الى العمل في الجامعة الاميركية حيث يدرس جورج حبش ووديع حداد وآخرون غيرهما، وحيث تتمحور الحركة الثقافية والسياسية ويتركّز وجودها المنظّم في إطار جمعية « العروة الوثقى »..

٢) « العروة الوثقى »

أنشئت هذه الجمعية لغايات أدبية في أوائل الثلاثينات، إلا أنها سرعان ما تحولت الى جمعية سياسية على أثر المد السياسي القوي الذي نشأ بعد ضياع فلسطين، وعلى أثر ارتفاع حدة المطالبة العربية بالاستقلال عن الاستعمار المباشر، الأمر الذي أدّى بطبيعة الحال الى طغيان السياسة على الأدب.

كانت هذه الجمعية تضم عدداً كبيراً من طلاب وأساتذة الجامعة الأميركية في بيروت، وكان الدكتور قسطنطين زريق من أشهر مُنظِّريها بالإضافة الى آخرين من أمثال فاضل الجمالي واسماعيل الأزهري (الرئيس السابق لجمهورية السودان.

كانت الجمعية تعارض الاشتراكية، وتؤيد الدعوة الى الوحدة القومية العربية وتدعو الى مصالحة الغرب (كما كان يرى زريق)، ومناصرة أميركا في سعيها الى طرد الاستعمار التقليدي في الوطن العربي وخصوصاً انكلترا وفرنسا، وكان منظرو الجمعية يعتبرون ان اميركا « زائدة التقدمية والديمقراطية والحرية في العالم[٥] ».

انتسب جورج حبش ووديع حداد وهاني الهندي وأحمد الخطيب وكلهم فلسطينيون الى الجمعية تأثراً بالأفكار التي تدعو لها، فأعطوها بُعداً فلسطينياً واضحاً وحلوها على انتهاج سياسة فلسطينية كانت فيما بعد هي السياسة الوحيدة في تلك الجمعية، خصوصاً بعد أن نجح جورج حبش ورفاقه في السيطرة على اللجنة التنفيذية « للعروة الوثقى »، بعد أن ألحق الهزيمة بمنافسيه الشيوعيين والقوميين السوريين.

وقد سيطر حبش ورفاقه فيما بعد على النشرة التي تصدرها الجمعية وما زالوا ينشطون فيها حتى تمكنوا من تشكيل محور خاص بهم سموه « شباب الثأر »، وقد غيروا هذا الاسم لاحقاً فصار « الشباب القومي العربي ».

انتهج هؤلاء الشباب سياسة ثابتة في رفض « اسرائيل » والحؤول دون إجراء مفاوضات مباشرة معها، فأنشأوا هيئة سنة (١٩٤٩ ـ ١٩٥٠) سميت « هيئة مقاومة الصلح مع إسرائيل » ما لبثت أن أصدرت بدورها نشرة حملت اسم « الثأر » كانت شعاراتها « الوحدة ـ التحرر ـ الثأر » مقابل شعارات البعث في حينه « وحدة ـ حرية ـ اشتراكية[٦] ».

كانت النشرة تعتبر أن الصراع مع إسرائيل هو صراع مع اليهود في آن واحد ولا تقيم فروقات بين اليهود والصهيونية، وعلى الصعيد العربي انتهجت النشرة سياسة عداء للاشتراكية، لاعتقادها أن الدعوة الاشتراكية تولّد صراعات داخلية وبالتالي تعيق عملية الصراع مع اليهود.

تمحورت نشاطات الحركة حول هذه القضايا في صفوف الطلاب في الجامعة الأميركية، حيث كانت توزع النشرة بكثافة، ووزعت النشرة أيضاً على نطاق ضيق في المخيمات، بسبب المراقبة الشديدة التي كانت تفرضها

السلطة اللبنانية على هذه الأخيرة حتى عشية العام (١٩٦٩) ، والشكل الآخر لاتصال هذه الجماعة بالمخيمات كان يمر من خلال تقديم معونات طبية وغذائية وما شابه .

حركة القوميين العرب

سنة (١٩٥١) ، اتخذ جورج حبش زمام المبادرة وتقدّم باقتراح أمام اللجنة التنفيذية « للعروة الوثقى » دعا بموجبه إلى إنشاء منظمة سرية قومية جديدة تكون اللجنة التنفيذية « للعروة الوثقى » نواة لها ، وقد استجاب كافة الأعضاء (٣٤ عضواً) للاقتراح ، وحدّد حبش برنامج منظمته بمرحلتين :

الأولى : تهتم بالنضال السياسي الذي يهدف الى التخلص من الصهيونية والامبريالية (لم تكن كذلك يومها) في الوطن العربي ، والى خلق دولة عربية موحّدة تضم الشعب العربي من الخليج الى المحيط الأطلسي .

والثانية : تهتم بالنضال الاقتصادي الذي يمهد الطريق الى الاشتراكية العربية والديمقراطية . ويقول الكبيسي في أطروحته عن الحركة إن هذا البرنامج قد « فشل في سد الحاجة الماسة الى فكر عربي(٧) » .

بالإضافة الى ما يقوله الكبيسي يلاحَظُ أن الحركة وقادتها قد خضعوا مبكراً لآراء أحد أساتذتهم الدكتور قسطنطين زريق ولعلي ناصر الدين المهتم بالعمل القومي وعضو « عصبة العمل القومي » وأحد مؤسسيها ، وكانا يدعوان الى إحلال الثقافة الغربية مكان الثقافة التقليدية ، وكانت الحركة تتبنى هذه الدعوة وتصل إلى أبعد من ذلك ، « فنزولاً عند نصيحة علي ناصر الدين لم يعترض القوميون العرب على المشاريع البريطانية الساعية الى خلق « سوريا الكبرى » والهلال الخصيب ، باعتبار أن هذا المشروع إذا ما تم سيعجّل في التخلص من النفوذ الأجنبي عن طريق خلق دولة عربية كبرى ، وكان أيضاً وراء حملة المقاطعة للبضائع الاميركية التي جعلت من الحركة الفريق الأكثر تعصباً في الجامعة الأميركية[٨] » .

يلاحَظُ مما تقدّم أن نشأة « حركة القوميين العرب » الأولى كانت نشأة « تنظيمية » بحته إذا جاز التعبير ، فقد اهتم مؤسسوها منذ البدء بالعمل المباشر والفوري ذي الطابع التحريضي ، الأمر الذي يؤكد ما قاله كثيرون عنها بانها وليدة ردود الفعل على سقوط فلسطين .

لقد تحكمت هذه النشأة وظروفها بخط حياة الحركة اللاحق وبمواقفها ونوعية تحالفاتها ، وإذا كانت قد شهدت توسعاً تنظيمياً ولعبت أدواراً سياسية وعسكرية متفاوتة الأهمية خلال مراحل وجودها المختلفة ، فإن الجانب الفكري في حياتها كان معدوماً ، لقد كانت تنظيماً بلا رأس مفكّر ولم يكن جورج حبش أكثر من رأس منظّم وهو كذلك على ما يبدو حتى يومنا هذا .

إن انتقال الحركة من رعاية « مفكر عربي » الى آخر، ومن رعاية زعيم عربي الى آخر ووقوعها في أحضان السياسة الناصرية، هي مؤشرات ثابتة على ما نقوله لذا رُسمت نهايتها مع طلائع انتكاسة التجربة الناصرية في مصر ومع تقدم الفكر الماركسي وترجمته الى العربية في الفترة ذاتها، أي فترة تزايد النفوذ السوفياتي في المشرق العربي والنتائج التي ترتبت على هذا النفوذ المستَجِدْ.

نعود قبل الاسترسال في التحليل، الى متابعة مسيرة « القوميين العرب » فبعد أن تأكد للفلسطينيين أن مسألة استرجاع فلسطين ليست مسألة أيام أو شهور، وبعد هزيمة جيش الإنقاذ أمام المنظمات الصهيونية وبعد فشل مشاريع تقسيم فلسطين واستقرار الجيوش العربية في الأقسام الفلسطينية الموجودة تحت سيطرتها، انتهجت الحكومات العربية سياسة تهدئة مع الفلسطينيين وقامت بمشاريع إسكانية مؤقتة بانتظار الحل الذي لم يرَ النور حتى يومنا هذا.

وكالعادة قدمت حركة « القوميين العرب » جواباً تنظيمياً على التطورات السياسية التي قرأنا عناوينها، فأنشأت كما رأينا « هيئة مقاومة الصلح مع إسرائيل » وأصدرت صحيفة « الثأر » لحشد القوى اللازمة لتحرير فلسطين ولمقاومة مشاريع الصلح معها ومشاريع توطين الفلسطينيين في البلدان التي نزحوا اليها.

في هذا الوقت انتسب للحركة أحد أهم مؤسسيها ومنظِّميها وديع حداد الذي سيصبح منذ هذا التاريخ (١٩٥٢) العقل المنظِّم للحركة وأحد أعمدتها الضخمة، ويمكن أن نعزوَ إلى حداد التوجه العسكري للحركة على مدى سنين طويلة وخصوصاً في فترة إنشاء « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وبعدها حتى عشية الحرب الأهلية في لبنان.

في العام (١٩٥٣) بدأت « حركة القوميين العرب » تمد نشاطاتها الى الدول العربية المشرقية وخصوصاً سورية والأردن فنشأت على الأثر خلايا سرية تتصل بحركة القوميين العرب من خلال « هيئة مقاومة الصلح مع إسرائيل ». وقد أصدرت الحركة في حينه نشرة « الثأر » هي « أولى نشرات المقاومة الفلسطينية في لبنان[٩] »، حملت شعارات « وحدة ـ تحرر ـ ثأر »، وكانت تَعتَبر أن الصراع مع إسرائيل هو صراع مع اليهود، ولا تقيم فروقات بين اليهود والصهيونية وكانت تقف ضد الإشتراكية ومع « القومية العربية »، لأن الاشتراكية وفقاً لاعتقادهم تولّد صراعات داخلية من شأنها إعاقة الصراع مع اليهود[١٠]، وقد تجمَّع للحركة يومها عدد يقارب المئة شاب لبناني وفلسطيني يوزِّعون نشرة الثأر بسرية تامة، ويقومون بتدريبات وهمية هي أشبه بالتدريبات الكشفية.

السياسة الناصرية أو الرافعة الأساسية
في نمو « حركة القوميين العرب

يُجمع المؤرخون ومن بينهم مؤرخو « حركة القوميين العرب » على القول بأن السياسة الناصرية هي العنصر الحاسم في توسع « حركة القوميين العرب » ونفاذها الى تضاعيف المجتمع العربي من المحيط الى الخليج، ولا يعود انتشار الحركة العربي في الخمسينات الى محض الصدفة وحدها بل نجد أنها انتقلت من منظمة محصورة في إطار لبناني ضيق ومستقلة بين عدد من المنظمات الصغيرة، الى حركة ذات حضور فعلي في سورية والأردن والعراق ومصر بل في ليبيا والسودان واليمن خلال سنوات قليلة ويمكن القول إنها كانت تنتشر جنباً إلى جنب مع الفتوحات الناصرية في الخمسينات للدول العربية المنغلقة بعضها على البعض الآخر بفعل السياسة البريطانية والفرنسية في الوطن العربي.

لقد تمكن عبد الناصر من كسر الحدود السياسية العربية في فترة زمنية قصيرة وتمكنت « حركة القوميين العرب » من الاستعانة بالسياسة الناصرية فتوفر لها حضور فعلي ولعبت أدواراً سياسية كانت تنحسر أو تتوسع وفقاً لانحسار أو توسع السياسة الناصرية في هذا البلد أو ذاك.

بدأ النضال المشترك مع مصر ضد حلف بغداد، في تلك الفترة كان جورج حبش يقود الفرع الأردني من حركة القوميين العرب، أقام في عمان حيث اصدر مجلة « الرأي » الأسبوعية عامي (١٩٥٤ - ١٩٥٥) وفتح ودبع حداد عيادة طبية تحولت بسرعة الى مكان لالتقاء المرضى المعوزين، كان الطبيبان يعطيان للمرضى الوصفات الطبية المجانية مصحوبة بنسخ من مجلة « الرأي » لكن بعد ثمانية أشهر من صدورها منعتها السلطات الأردنية بحجة حملتها ضد المعاهدة الانكليزية - الأردنية التي عقدت عام (١٩٣٠)، والتي تتلقى المملكة بموجبها مساعدات عسكرية ومالية بريطانية مقابل السماح لها بإقامة قواعد عسكرية في « العقبة » والمفرق. وعادت المجلة الى الصدور تحت الاسم نفسه في دمشق، حيث شارك غسان كنفاني الداخل حديثاً الى « حركة القوميين العرب » بقسط كبير من تحريرها وتحضيرها[١١] ».

ويقول باسل الكبيسي إن قادة الثورة المصرية تنبهوا الى دور « حركة القوميين العرب »، عندما قادت هذه الأخيرة تظاهرات طلابية ضد حلف بغداد في الجامعة الأميركية في بيروت، فاتصلوا بقادتها ونشأ منذ ذلك الحين تعاون امتد إلى ما بعد الجبهة « الشعبية لتحرير فلسطين » بفترة قصيرة.

أما في الأردن فإن الدور الذي لعبته الحركة فيما بعد كان يتأثر كما أكدنا مراراً بموقف المَلِك حسين من السياسة الناصرية، وعليه نلاحظ التحول في هذا الموقف عندما أقال المَلِك حسين « كلوب باشا » قائد الجيش

الأردني في حينه وعيّن سليمان النابلسي (الوطني الأردني) على رأس حكومة وطنية، الأمر الذي دفع حبش الى خوض الانتخابات، وعندما أقال الملك الحكومة المذكورة تحولت الحركة إلى العمل السري. وبنفس هذا السياق يمكن قراءة مواقف الحركة اللاحقة في الأردن. على الصعيد المصري شهد العام (١٩٥٦) تحولاً أساسياً في موقف القوميين العرب من عبد الناصر بعد أن ظهرت نقاط تحوّل مهمة في تاريخ الثورة المصرية عندما تبنّت «سياسة حيادية صلبة. وعقد ناصر صفقة أسلحة مع الاتحاد السوفياتي وأكد تصريح في الدستور سنة (١٩٥٦) بأن المصريين شعب عربي وهو جزء من الأمة العربية ثم تأمّمت قناة السويس بعد سحب العرض الاميركي للمعونة من أجل بناء سد أسوان، الأمر الذي أدىّ الى توطيد علاقة الحركة بالثورة الناصرية[١٢]»، وقد وجَدَت الحركة بعد ذلك في إذاعة «صوت العرب» البرنامج الأسبوعي الموجّه من القاهرة أداة فعّالة في تحركها السياسي.

في العام (١٩٥٨) وبعد انحسار وجود «حركة القوميين العرب» في الأردن ومع إعلان الوحدة بين مصر وسورية، انتقل مركز الثقل في عمل الحركة الى لبنان وسورية رابطة بذلك «مصيرها بمصير دولة الوحدة[١٣]» وفي التطورات اللاحقة وقف «القوميون العرب» في لبنان ضد حكومة رئيس الجمهورية كميل شمعون في حينه، وشاركوا في الحرب الأهلية سنة (١٩٥٨) في هذا البلد تحت قيادة الزعامات الإسلامية السُنّيّة الواقعة تحت هيمنة دولة الوحدة.

بعد انتهاء الحرب الأهلية في لبنان على أساس شعار «لا غالب ولا مغلوب»، وبعد أن اعتمد عبد الناصر حلاً للوضع الداخلي ذهب بموجبه شمعون وانتُخب اللواء فؤاد شهاب بمبادرة ناصرية أساساً وبموافقة اميركية، وبعد أن حُيِّد لبنان في الصراعات العربية الناتجة عن الوحدة، انتقل مركز الصراع الى العراق وفقاً لمراهنة ناصرية على دخول هذا البلد، فانتدبت الحركة هاني الهندي أحد قيادييها البارزين ليساهم باتخاذ القرارات المهمة المتصلة بالوضع الداخلي هناك.

وتوَّجت الحركة سياستها الناصرية بافتتاحية العدد الأول من مجلة «الحرية» التي صدرت في العام (١٩٦٠)، وجاء فيها أن الحركة ستحارب اعداء القومية العربية سواء أكانوا من اليمين أم من اليسار.

شهدت الفترة السابقة على الانفصال بين سورية ومصر وفشل مشروع الجمهورية العربية المتحدة، الهزيمة الأولى للناصرية بوصفها التيار القومي العربي الصاعد بزخم لا يقل عن زخم خطابات ناصر الملتهبة في حينه، ومن البديهي أن تكون تلك الفترة، بالنسبة «لحركة القوميين العرب» فترة امتداد وتوسع واكتساب خبرات وفترة تضخم تنظيمي وإعلامي وسياسي.

لكن هذا التضخم القائم أساساً على الرهان الناصري كان لا بد أن يتأثر بالتطورات التي أصابت السياسة

الناصرية ذاتها، والهزيمة الأساسية التي لحقت بها إن لم نقل الضربة القاصمة: الانفصال الذي وقع عام (١٩٦٠) وانهيار تجربة الوحدة.

كانت «حركة القوميين العرب» قد تلقت التأثيرات الإيجابية للثورة الناصرية قبل العام (١٩٦١)، وكان عليها أن تتلقى تأثيراتها السلبية بعد العام المذكور ويجمع النقاد الذين تناولوا تجربة الحركة على اعتبار الأعوام (١٩٦٣، ١٩٦١) أعوام التحولات الداخلية وأعوام الصراعات الفكرية» إذا جاز القول.

أغلب الظن أن تلك الصراعات ربما كادت أن تودي بالحركة لولا القدرة العجيبة التي كان يمتلكها عبد الناصر ويحوّل بموجبها الهزيمة الى نصر،فما أن كادت الناصرية تلتقط أنفاسها بعد الانفصال وأن تتجه سياسياً وعسكرياً الى الاهتمام بالصراعات الدائرة في اليمن والخليج العربي، والاهتمام بمواجهة البعثيين الذين نفذوا انقلابين عسكريّيْن في كل من سورية والعراق، حتى استكان الوضع الداخلي في الحركة.

مهّد عبد الناصر لسياسته تلك بإجراءات أساسية على الصعيد الداخلي المصري، تمكن بموجبها من القضاء على ردود الفعل الداخلية التي كان يقودها سراً الطاقم السياسي الذي احتفظ بمواقعه الاقتصادية بعد أن جرّدته ثورة ٢٣ تموز - يوليو من مواقعه السياسية، فأعلنت القرارات الاشتراكية الشهيرة التي لاقت صدى واسعاً في نفوس عدد كبير من قادة «القوميين العرب» «وأهمهم جورج حبش وهاني الهندي ووديع حداد وأحمد الخطيب، ووافقت عليها مبدئياً مجموعة أخرى بقيادة محسن ابراهيم إلا أنها اشترطت، لذلك أن هذه القرارات يجب أن يحققها حزب اشتراكي وهذا ليس موجوداً في مصر ولم تقتنع هذه المجموعة بمقولة الانتقال السلمي الى الاشتراكية[١٤]».

استوعب عبد الناصر نكسة الانفصال داخلياً وخارجياً، فاستوعب «القوميون العرب» النكسة ذاتها داخلياً وخارجياً أيضاً، وأيّدوا القرارات الاشتراكية كل حسب موقعه القيادي واندرجوا خارجياً في صراع مفتوح مع «حزب البعث العربي الاشتراكي» وتطوعوا جنوداً في حرب اليمن الى جانب الجيش المصري.

هنا نتوقف قليلاً عند موقف قيادة لبنان في «حركة القوميين العرب» بزعامة محسن ابراهيم، فهذه القيادة التي تحفظت على «القرارات الاشتراكية» ووافقت عليها بشكل مشروط عادت فاقترحت «دمج حركة القوميين العرب بالناصرية على الصعيد القومي وذهب محسن ابراهيم بنفسه الى مصر ليناقش الأمر مع عبد الناصر[١٥]».

كانت «حرب اليمن» هي المحطة الثانية في رهان «حركة القوميين العرب» على السياسة الناصرية، وإذا كانت نتائج هذه الحرب قد انعكست كانتصارات كاسحة للجيش المصري في اليمن في أجهزة الإعلام المصرية والعربية المتأثرة بالناصرية، فإن الانتكاسات الفعلية المصرية في اليمن لم تكن خافية على «القوميين العرب» الذين

كانوا يتلقون التقارير المباشرة عن مجريات تلك الحرب من عناصرهم المشاركة فيها، وقد أدّى هذا الأمر الى طرح أسئلة داخلية في الحركة كانت تضاف الى تلك الأسئلة التي طرحت بعد تجربة «الانفصال»، يضاف الى ذلك الخلافات العلنية التي نشأت في اليمن بين الضباط المصريين وبين فرع الحركة اليمني في حينه، وقد أدّى ذلك كله الى «تدني مستوى العلاقة» بين الحركة وبين الناصرية دون أن ينتهي إلى قطيعة علنية بين الطرفين، بل يمكن القول بأن الموقف المعلن للحركة حتى عشية العام (١٩٦٧) كان مؤيداً للسياسة الناصرية.

خلال السنوات الممتدة من (١٩٦١) حتى (١٩٦٧) كانت الأفكار الماركسية قد باشرت «بغزو» الحركة مستفيدة من الأسئلة التي كانت تطرح في الداخل حول الانتكاسات المصرية المتتالية من جهة ومستفيدة أيضاً من جو الانفراج في العلاقات المصرية ـ السوفياتية، ومن دعم الاتحاد السوفياتي لمصر الذي وصل عشية الخامس من حزيران ـ يونيو ـ الى درجات قياسية.

لقد انتصرت الماركسية، وانتعشت الأحزاب الشيوعية العربية مستفيدة من العلاقات الإيجابية المذكورة، فتُرجمت المؤلفات الماركسية الى العربية ونشطت المراكز الثقافية السوفياتية والاشتراكية بشكل عام في بيروت والقاهرة ودمشق وغيرها.

لكن «الغزو الماركسي» للحركة كان بحاجة لعملية ولادة تكسبه مشروعيته وتعطيه زخماً كبيراً فجاءت نتائج حرب الخامس من حزيران ـ يونيو لتضرب في الجذور السياسية الناصرية ولتكشف بعمق هشاشة الوضع الداخلي المصري، وقد تركت الهزيمة المذكورة آثاراً كبيرة على مواقع النفوذ الناصرية وعلى إمكانية التحكم المصري بمفاصل السياسة العربية، ويمكن القول بجرأة إن المقاومة الفلسطينية قد تجاوزت مرحلة «عنق الزجاجة» بعد الهزيمة مباشرة.

مع نمو المقاومة الفلسطينية ومع ظهورها العلني وانتشارها المتسارع في الوطن العربي وافادتها من نتائج حرب (١٩٦٧)، انتشرت معها الأفكار الماركسية التي حاولت أن تفسر أسباب هزيمة حزيران تفسيراً يقوم على اعتبار الهزيمة المذكورة «هزيمة برنامج الطبقة البرجوازية الصغيرة فكرياً وسياسياً وعسكرياً» واعتَبَرت الماركسية الناشئة في حينه على هامش الأحزاب الشيوعية العربية التي التزمت الموقف السوفياتي المؤيّد لمصر، اعتبرت تلك الماركسية أن الهزيمة في حزيران ـ يونيو ليست هزيمة جيش عربي بقدر ما هي هزيمة منهج في العمل السياسي والفكري والاقتصادي[١٦].

شكلت «المقاومة الفلسطينية» والماركسية غير السوفياتية ظاهرتين معارضتين للسياسة الناصرية، وإذا كانت «المقاومة قد عادت بعد تثبيت وجودها لتصوغ علاقات جيدة مع ناصر ومع الأنظمة العربية الأخرى منتهجة

سياسة متوازنة في الصراعات العربية، فإن الماركسية غير السوفياتية وجدت نفسها في اتجاه آخر لا يُخضع سياسته لحسابات عربية، ومع أن هذا الاتجاه لم يصمد في سياسته العربية زمناً طويلاً إلا أنه استطاع أن يُجهز على «حركة سياسية» هي حركة القوميين العرب، التي لفظت أنفاسها مع طلائع الهزيمة الحزيرانية الشهيرة لتنتهي بذلك تجربة فريدة في العمل السياسي العربي، وليتشرذم في نهايتها تنظيم عاش على الدوام على ردود الفعل الناصرية وعلى تبريرها.

قبل استكمال الحديث عن النتائج التي ترتبت على انهيار «حركة القوميين العرب» نتوقف قليلاً عند الفروقات التي حددتها الحركة لنفسها، والتي بررت بها وجودها عن غيرها من الأحزاب القومية والتقدمية في الفترة الذهبية في حياتها أي منذ نشوئها وحتى العام (١٩٦١).

كانت أفكار «حركة القوميين العرب» «وحزب البعث العربي الإشتراكي» تتجه الى الوقوف بوجه التيار الشيوعي ذي النزعة الإنسانية والمساواتية والمتنكر في حينه (الأربعينات والخمسينات) للقومية العربية، وضد التيار الإسلامي المتزمت الذي تمثله جماعة «الأخوان المسلمين» وفي مواجهة هذين التيارين تبلورت أفكار «البعث» «والحركة».

لكن «حركة القوميين العرب» بالإضافة الى تعيشها على المواقف السياسية الناصرية، فإنها كانت تنزع الى بلورة بعض الأفكار القومية التي لا تقوم على أرض واضحة المعالم كقولها «إن القومية هي العنصر المحرك للتاريخ» وإن المجتمعات تطورت كأمم وكانت القومية هي القوة المحركة «ومن الواضح أن النقاش بأكمله اعتمد على افتراض أن للقومية علاقة بالنزعة الإنسانية(١٧)».

وفي كتابها الأيديولوجي الأول «مع القومية العربية»، كان موضوع النقاش الرئيسي فيه هو «أن القومية لم تكن نتاجاً للدول البرجوازية في أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأنها النتيجة المنطقية لعملية تطور طويلة على امتداد التاريخ البشري(١٨)».

وفي أعقاب فشل هذا الطرح، الذي هو في التحليل الأخير فشل الرهان على السياسة الناصرية طرحت نظرية «الإشتراكية العربية»، المشوّبَة بدورها بغموض شديد يضاف الى ذلك كله تأثر قيادات الحركة بالرعيل القومي الأول وبالاتجاهات القومية العالمية، وخصوصاً في إيطاليا وألمانيا، وقد أشرنا الى ذلك كله في سياق حديثنا السابق.

أما البنية التنظيمية للحركة فإنها كانت تشبه الهرم، القيادة في أعلى مراتب السلطة والقاعدة في أسفلها.

«حركة القوميين العرب» بعد العام (١٩٦٧)

توالت المؤتمرات الداخلية في «حركة القوميين العرب» بعد هزيمة الخامس من حزيران - يونيو عام (١٩٦٧) وذلك في حركة محمومة لمناقشة نتائج الهزيمة وأسبابها وتحديد موقف منها، وقد شهدت الحركة ربما للمرة الأولى في تاريخها انتشاراً واسعاً للمنهج الماركسي في التحليل، وفي المطالبة بتغيير الخط السياسي للحركة التي وُصِفت بأنها «شبه برجوازية» وتحويلها الى حزب ماركسي - لينيني وعلى الأثر انتشرت تصنيفات «اليسار واليمين» فيها، فاليسار هو الذي أعلن التزامه بالماركسية اللينينية واليمين هو الذي رفضها أو الذي وافق عليها مع التحفظ والتروي، لكن الحرص على وحدة الحركة وعدم تشرذمها كان سائداً في أوساط الفريقين.

هنا لا بد من الإشارة مرة أخرى الى القدرة التنظيمية الملفتة التي كان يمتلكها زعيم الحركة الدكتور جورج حبش، والذي استطاع أن يوازن بين الأجنحة وان يحافظ على وحدة الحركة وأن يشكل من تياراتها ما عرف فيما بعد «بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين».

ويقول عدد من القياديين الذين عاصروا تلك الفترة، إن حبش لعب أدواراً مشابهة في الفترات التي كانت الحركة تواجه فيها أزمات مشابهة وإنه أفلح في استيعابها كلها.

لم يتمكن حبش من الحفاظ نهائياً على وحدة الحركة لأسباب أساسية، تضاف الى هزيمة الخامس من حزيران - يونيو، ولعل أهمها على الإطلاق بداية تبلور «المقاومة الفلسطينية» وخصوصاً حركة «فتح» وظهورها الفلسطيني المستقل نسبياً، الأمر الذي دفع الحركة وهي ذات التاريخ القومي، الى تيار «الإقليمية الفلسطينية» الذي برز مع بروز «فتح» وخصوصاً شعارها الشهير «عدم التدخل بالشؤون الداخلية للأنظمة العربية ما دامت هذه الأنظمة لا تتدخل بشؤون المقاومة الفلسطينية». في ظل هذه السياسة شكلت «حركة القوميين العرب» مجموعتين فدائيتين خلال العام (١٩٦٧) هما «أبطال العودة» بقيادة العقيد وجيه المدني و«شبيبة الثأر»، التي تمثل الجناح العسكري الأكثر تطرفاً في الحركة بقيادة نايف حواتمة[١٩]، وقد نفَّذت أولى عملياتها العسكرية في الخامس من حزيران - يونيو (١٩٦٧)، أي صبيحة أول أيام الهزيمة.

باندراجها في العمل الفلسطيني المسلح، وعدم قدرتها على مواجهة تاريخها العربي المُشْبَع بالانتكاسات، خَطَّت «حركة القوميين العرب» أولى الخطوات المباشرة في وضع حد لموقعها القومي ووضعت قدمها على عتبة نهايتها التي لم تنتظر أكثر من عام واحد.

في العام (١٩٦٨) شكل جورج حبش «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» من التنظيم الفلسطيني في «حركة القوميين العرب»، ومن منظمة فلسطينية ناشئة بزعامة أحمد جبريل (نقيب فلسطيني سابق في سلاح الهندسة السوري)، ومن جماعة فدائية أخرى كان يرأسها الوجه الفلسطيني المعروف أحمد زعرور.

ويتضح من تشكيل « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » أن جورج حبش وقيادة حركة القوميين العرب، كانا يسعيان الى الالتفاف على التيار الماركسي الذي أفاد من نتائج هزيمة حزيران، محققاً مكاسب هامة ومواقع أساسية في الحركة وخاصة في لبنان. وإلى إعطاء الحركة بعداً فلسطينياً وعسكرياً بصورة خاصة، يمكن أن يستوعب التطورات التي شهدتها الساحة الفلسطينية في حينه، والممثَّلة ببروز حركة « فتح » صاحبة المبادرة الفدائية الأولى.

لكن صدفة سيئة وقعت في هذه الأثناء، أدت الى تخريب سياسة حبش والى هدم كل ما بناه، ومن المفيد هنا أن نلفت الانتباه الى أن ظهور « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » ظهوراً قوياً وكبيراً، كان يضيف الى الساحة الفلسطينية شريكاً لمنظمة « فتح » لا يستهان بخبرته وتجربته السياسية الطويلة التي كان فضل دعمها بالخبرة العسكرية الفريدة، لأحمد جبريل ومجموعته.

لقد كانت منظمة « فتح » في حينه تلقى تشجيعاً عربياً بارزاً من محورين أساسيين، سورية والجزائر، وكانت علاقاتها المصرية فاترة الى أبعد الحدود، ومع بروز « الجبهة الشعبية » المؤيَّدة مصرياً وعراقياً في ذلك الحين، كانت « فتح » بحاجة ماسة الى مواجهة هذا المنافس الذي برز فجأة بروزاً كبيراً، في هذه الأثناء قام جورج حبش بمبادرة لا يحسد عليها، عندما زار سورية البلد الذي خاض حبش معاركه الأساسية معه في السابق، في محاولة لفتح الحدود السورية أمام « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » فكان أن اعتقله عبد الكريم الجندي رئيس المخابرات السورية وأودعه السجن سبعة أشهر ونصف الشهر.

وفي ظل غياب حبش، مركز التوازن في « حركة القوميين العرب » ومؤسس « الجبهة الشعبية » برزت التناقضات الى السطح وشهدت الحركة خلال تلك الفترة صراعات أساسية أدَّت الى خروج أحمد جبريل منها فأسس « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة » في سورية، ومن بعده خرج أحمد زعرور الذي أنشأ « منظمة فلسطين العربية » في الأردن وكان واضحاً أن خروجهما قد تم بضغط من التيار الماركسي في ذلك الحين وبتدخلات « فتحاوية » وسوريّة وأردنية، وبذلك خلَت الساحة تقريباً للماركسيين الذين تزعمهم نايف حواتمة قبل خروج جورج حبش من السجن بفترة قليلة بواسطة كمين أعدّه وديع حداد. وفي آب ـ أغسطس من العام (١٩٦٨) وافق أحد مؤتمرات « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » على ما عرف في حينه « بالتقرير السياسي الأساسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » تكرّس بنتيجة انتصار الماركسيين، ودعا هذا التقرير للمرة الأولى الى تبني الماركسية اللينينة، لأن « أيديولوجية البرجوازية الصغيرة أظهرت أنها غير قادرة على حل المعضلات التي يطرحها التحرر الوطني، واعتماد سياسة نضالية طويلة النفس ضد الامبريالية وحلفائها » ودعا هذا التقرير أيضاً الى الكفاح المسلح وحرب الشعب الطويلة الأمد والى الأخذ بالأمثلة الثورية من فيتنام وكوبا.

بعد خروج حبش من السجن، لم يوافق على التقرير المذكور واعتبره غير شرعي وحاول الاتصال بالمنشقين، لكن الأمور كانت قد خرجت عن حدود طاقته الفعلية خصوصاً أن ما جرى كان متصلاً بأطراف عربية وفلسطينية مباشرة، إلا أن حبش كان عليه أن يواجه الطرف الأقوى داخل الحركة والذي تزعمه نايف حواتمة، ومحسن ابراهيم في فرع الحركة اللبناني وغيرهما، هذا الجناح الذي قرر خوض الصراع حتى « نهاياته المنطقية » كما عُبّر عن ذلك في حينه، وقد شهدت الفترة الواقعة بين آب ـ اغسطس ١٩٦٨ وشباط ـ فبراير (١٩٦٩) صراعاً داخلياً حادّاً خرج بنتيجته حواتمة من « الجبهة الشعبية » مشكّلاً ما يعرف حتى اليوم « بالجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين » ولسنا بحاجة للتأكيد مرة أخرى، أن ظروف خروج الجناح الماركسي من « الجبهة الشعبية » كان خاضعاً لنفس العوامل التي تحكمت بخروج التنظيمين السابقين بقيادة « جبريل » و « زعرور ».

والذين عاصروا ظروف انشقاق « حواتمة » يعرفون أن الإمكانيات التي استند عليها في تأسيس جبهته كانت في حدود الصفر تقريباً.

أسس الخلاف الايديولوجي بين حبش وحواتمه

قبل أن نعرض للأسس المذكورة، لا بد أن نشير الى الخطأ الفادح الذي ارتكبته « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » عندما حاولت في معركة عسكرية واحدة أن تواجه الفريق المنشق عنها، هذه المعركة التي أدّت الى مقتل أحد أعضاء الفريق المنشق، وساهمت بتأكيد المآخذ « الفاشية » و« الإرهابية » عليها، الخ والتي طرحها الفريق المنشق في حينه.

ونشير الى أمر آخر أيضاً، يتصل بفروع « حركة القوميين العرب » في بعض البلدان العربية التي تحولت الى تنظيمات محلية محدودة الأثر والفعالية مع انشقاق حواتمة، علماً بأنها كانت تعيش أوضاعاً لا تحسد عليها قبل ذلك، ولا نجد اليوم لبقايا « حركة القوميين العرب » أي أثر في الحياة السياسية العربية خصوصاً في سورية والعراق والأردن، أما في لبنان فان تنظيم الحركة بغالبيته الساحقة قد تحول الى « منظمة الاشتراكيين اللبنانيين » التي عادت واندمجت مع تنظيم محلي ماركسي هو لبنان الاشتراكي ليشكلا ما عرف واستمرّ حتى اليوم باسم « منظمة العمل الشيوعي » وقد نمت هذه المنظمة في رعاية « الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين » حتى عشية الحرب الأهلية في لبنان حيث طرأت على علاقتهما تطورات لسنا في معرض الحديث عنها مفصلاً، وما تبقى من المنظمة شكل ما عرف بحزب « العمل الاشتراكي العربي » الذي رعته « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وقد انقسم هذا الحزب فيما بعد، ولم تلتحق بعض « القيادات » الحركية أو « الشخصيات » الحركية إذا جاز القول في طرابلس وصور وبيروت بأي من التنظيمين وانتهجت لنفسها أساليب عمل شخصية على الطريقة اللبنانية.

في عودتنا الى البحث عن أسس الخلاف بين حبش وحواتمة نشير الى تحقيق أجراه الصحافي طلال سلمان (لم يكن يومها رئيساً لتحرير « السفير »، الصحيفة اليومية اللبنانية) ونشره في كتاب مستقل، فقابل لحظة وقوع الخلاف بين فريقي « الجبهة الشعبية » كل من جورج حبش ونايف حواتمة. وفي هذا التحقيق علّق حبش على طروحات الماركسيين في الجبهة قائلاً: « إن اللغة التي يستخدمها « الأخوان » جديدة وغريبة على آذان الجميع، إنهم ينسون الواقع تماماً، فيركزون أحاديثهم وعملهم على ضرورة تفجير الصراع الطبقي، بينما نحن نريد أن نجرّ المزيد من قطاعات الشعب الفلسطيني الى ساحة القتال، ماذا يمكننا أن نقدم للقضية إذا كنا محاصَرين؟! إن منطق الأخوان سيعزلنا عن الجميع، حتى عن ذوي المصلحة الحقيقية في الثورة، هل تعتقد أن أبناء المخيمات سيلبون نداء الثورة البروليتارية؟! أبداً[٢٠] ».

أما نايف حواتمة فإنه يرى العكس تماماً فإذا « ... كنا نريد تفجير ثورة كفيلة بتحرير فلسطين ـ علينا أن نبني حزبنا الثوري الماركسي ـ اللينيني.. ففي غياب مثل هذا الحزب لا يمكن تحويل حركة المقاومة الى ثورة حقيقية، إن نوعية المقاتل هي التي تحدد قدرته على إحراز النصر، وفي فيتنام ينتصر الثوار لأن نضالهم يرتكز الى قاعدة فكرية ثورية[٢١] ».

ويضيف قائلاً « .. إما أن تكون طليعة ثورة عربية تحريرية شاملة أو لا تكون شيئاً[٢٢] ».

..لم يصمد حبش كثيراً في موقفه المتحفظ على تلبية « نداء الثورة البروليتارية » فقد تبنى بعد أشهر من انشقاق الفريق الماركسي، الايديولوجية الماركسية اللينينية، بحيث لم تعد تفصله عن حواتمة مسافات كثيرة وأغلب الظن أن « الضغط الايديولوجي » الذي شكله فريق حواتمة قد دفعا « الشعبية » الى السير خطوات كبيرة في هذا المجال.

ويرى أحد الصحافيين الفرنسيين « كزافيه بارون » (عمل لمدة عشر سنوات في « وكالة الصحافة الفرنسية » في بيروت، أنجز خلالها كتاباً عن المقاومة الفلسطينية) يرى بارون أنه لا توجد خلافات أساسية بين الفريقين فكلاهما « يستلهمان جياب، ويبشران بالحرب الشعبية ويدعوان الى تغيير جذري في العالم العربي ويتحدثان عن الصراع الطبقي[٢٣] ».

وعليه يطرح بارون سؤالاً ويجيب عليه في نفس الوقت « .. اذن أين يكمن الخلاف؟ بالإضافة الى خصومات الأشخاص التي وصلت الى حد القطيعة، هناك مبدئياً خلاف حول دور البرجوازية الصغيرة التي ينتمي إليها معظم مؤسسي حركة القوميين العرب، وهناك نقطة خلاف أخرى تتصل بشعار عدم التدخل بالشؤون والأوضاع الداخلية للدول العربية، فقد رفضت الجبهة الشعبية الديمقراطية الشعار واعتبرت الجبهة الشعبية أن هناك إمكانية للتمييز بين الأنظمة الوطنية في مصر والعراق وبين الأنظمة الرجعية، وتلقت دعماً من النظامين

المذكورين، ولكن فيما بعد اعتمدت «الشعبية» على العراق و«الديمقراطية» على سورية[٢٤]».

خلال أكثر من عقد من الزمن، لم تتغير أشياء كثيرة في الجبهتين الشعبية والديمقراطية، باستثناء انشقاق آخر وقع في الشعبية خرجت بنتيجته مجموعة من العناصر وعملت لفترة قصيرة تحت اسم «الجبهة الثورية لتحرير فلسطين» وقد انتهت هذه الجبهة الى طريق مسدود وتوزع أعضاؤها على منظمات المقاومة وعاد قسم منهم الى «الجبهة الشعبية» نفسها.

فيما عدا ذلك، تحدثت الصحف في مناسبات عديدة عن مساع تبذل لإعادة توطيد الجبهتين الشعبية والديمقراطية وعن مفاوضات في هذا السبيل إلا أن نتائج ملموسة لم تتحقق ويصعب تحقيقها في المستقبل كما نظن[٢٥]».

والاعتقاد السائد اليوم هو أن الخلاف بين الجبهتين لم يعد (كما لم يكن) عقائدياً والمقاومة الفلسطينية بكافة تنظيماتها مشدودة الى المحاور السياسية العربية، وتخضع بشكل مباشر لمؤثرات السياسة العربية مع احتفاظها بهامش محدود من الاستقلالية، تمارس من خلاله الضغط على هذا الطرف العربي أو ذاك، وباندراجها في السياسة الدولية تخضع المقاومة أيضاً لمؤثرات الصراع الدولي بين القوى الكبرى، ويبدو اليوم، الحديث عن الخلافات العقائدية التي شهدتها لفترة قصيرة منظمات المقاومة قبل أحداث أيلول ـ سبتمبر من العام (١٩٧٠) في الأردن، يبدو الحديث عنها الآن وكأنه يطال ذكريات أصبحت مُلكاً للتاريخ ولم تعد تربطها بالحاضر صلات قوية.

نَخلُص مما تقدم الى تحديد عدد من الملاحظات نجمُلها في الخطوط العامة التالية:

١) لم تكن «حركة القوميين العرب» في أي من مراحل «تطورها» حركة أصيلة، وعلى الدوام كانت خاضعة لمؤثرات فكرية غير واضحة حول مسألة «القومية العربية»، ولم تتمكن من تكوين أسس ثابتة لفكر عربي مستقل وقادر على صهر الأفكار القومية الإنسانية في بوتقة واحدة، تشكل دليل عمل في الساحة العربية، وفي غياب هذه القضية الشديدة الأهمية تحولت الحركة الى «تنظيم» يبحث على الدوام عن موقع رديف للسياسة الناصرية، ويبحث على الدوام عن مجالات عمل تخدم هذه السياسة وتخدم في الوقت نفسه وحدة التنظيم، ومن خلال دراسة مراحل نموها يتضح دور الأفكار «القومية الليبرالية» في حياتها السياسية (أفكار زريق وعلي ناصر الدين.. وغيرهما) وأفكار الرئيس جمال عبد الناصر المتأرجحة بين التجربة الاشتراكية المستندة الى الكتنولوجيا الأوروبية وبين «الأصالة» العربية التقليدية والمهات السياسية العربية (في أكثر من بلد عربي)، وتأرجحه بين سياسة عدم الانحياز والاندراج في السياسة السوفياتية والمراهنة على إمكانية الضغط الغربي على «إسرائيل» لانتزاع حلول سياسية تساعد على ضبط الوضع العربي، والمشروع في تحقيق الأهداف البعيدة في «الوحدة» و«الإشتراكية» لقد كان «التوزع» الناصري سبباً هائلاً في تأثيره على «توزع» «حركة القوميين العرب» وارتباكاتها، لا بل انتكاساتها المتعددة، لكن ذلك كله ليس مبرراً للقول «بفاشية الحركة» أو «بإرهابيتها» أو «بعنصريتها» وإلا

اعتبرنا الحركات السياسية المعاصرة للحركة في نشأتها الأولى حركات فاشية وإرهابية وعنصرية الخ وأغلب الظن أن هذا الوصف للحركة ينطلق من « مواقع فكرية » خارجية (أي غير داخلية وغير عضوية) لتبرير موقع فكري خارجي وغير عضوي، لا يُعينه على الوقوف على قدميه سوى سهولته وتبسيطيته.

٢) في إطار سياستها « المتقلبة » وفي إطار تَعيُّشها الدائم على ردود الفعل السياسية العربية وبالتالي الفكرية، تأرجحت الحركة بين « الموقف العربي » وبين الموقف الفلسطيني فانتهت كما بدأت « فلسطينية »، وعلى قاعدة « فلسطينيتها » وخروجها القومي، جاءت ماركسيتها العامة، و« بروليتاريتها » الغامضة.

٣) شكلت مسألة « القيادة » في « حركة القوميين العرب » عنصراً طاغياً في مختلف مراحل حياتها، فالقيادة هي اللحمة الحقيقة لها وهي العنصر الموّحِد لمؤسستها ؛ والتقنيات والخبرات التنظيمية والتكتيكات التي عرفتها الحركة في هذا المجال تشكل جزءاً هاماً وكبيراً من تاريخها. والذين خرجوا من « الحركة » فيما بعد، والذين اعترضوا على تكوينها كانت أعينهم شاخصة على الدوام نحو القيادة، وليس غريباً أن تشكل مسألة القيادة حيزاً كبيراً وكبيراً جداً في طروحاتهم، لا بل في تحليلاتهم لمجمل تجارب النضال الفلسطيني. وقد طرح كل من الخارجين عن الحركة، نفسه بمثابة القيادة البديلة، وليس غريباً أن يسعى الخارجون عنها إلى تشكيل « تنظيمات » يقفون على رأسها « كقيادة » بديلة فيصبحون بذلك بديلاً « للحركة »، بديلاً « تنظيمياً » وبديلاً مؤسساتياً يتوسل على الدوام ليبرر فرقته، في افكار وسياسيات ومشاريع برامج ومواقف ـ الخ وبهذا المعنى تحولت « الحركة » أو « الجبهة » الأم الى حركات وجبهات بتعدد قياداتها وزعاماتها « الفكرية » أو « السياسية » إذا جاز التعبير، أما الحديث عن بلورة تيار جماهيري والمساعدة في تنمية مبادراته وقبول الآخرين والعمل المشترك معهم والوقوف من التجارب موقفاً نقدياً وعدم الاستسلام للأفكار المطلقة ومحاربة « الفئوية » وإعادة قراءة التجارب الماضية على ضوء هذه الخواطر.. الخ كلها مسائل تسقط أمام « طليعية » القيادة المسبقة وأمام دمج الذات بها والدعوة الى محاربة الفصل بينهما.

إن هذا السلوك ليس جديداً، وليس ميّزة رجعية، إنه من أخص خصائص « التقدمية » بوجوهها الجديدة والقديمة ولا فضل لأحد على أحد بين « القوميين العرب » أو « الجبهويين » أولئك الذين خرجوا من صفوفهم.

٤) في ظل طغيان محورية القيادة في معظم التنظيمات السياسية العربية المعاصرة، يحتل صراع « العصبيات » الحزبية مرتبة هامة في الحياة السياسية للمعارضة العربية، وتنمو الفروقات على هذا الأساس وتتحدد التنظيمات وتتسور وتستحيل وحدتها وتبهت محاولاتها الإئتلافية وتتميز بقِصر عمرها، وينطبق هذا الكلام على « حركة القوميين العرب » في صراعاتها مع البعث وغيره من الأحزاب، وينطبق أيضاً على الأكثرية الساحقة من التنظيمات التي تتمتع « بفعالية » في الوقت الحاضر في أكثر من بلد عربي.

٥) تشير النهاية التي خُتِمَت بها تجربة «حركة القوميين العرب» الى انحسار المد القومي الذي عرف أوسع انتشار له في ظل الصراع العربي الإسرائيلي، والى تقدم المفاهيم الإقليمية التي جاءت مترافقة مع «التحديث» الأوروبي وتبدو الأوضاع العربية في استكانتها للحدود الإقليمية المدعَّمة على التوالي بخطوات جديدة وبالمزيد من التبعية والخضوع للأمبريالية، تبدو وكأنها رسَّخت والى أمد بعيد قضية النضال الإقليمي للمعارضة في البلدان العربية.

لا يعني هذا الكلام أن «حركة القوميين العرب» كانت تحمل على أكتافها وحيدة عبء النضال العربي القومي، إنه يكتفي بالاستدلال من مؤشر هام، الى الخط العام للتحول الذي طرأ على الوضع العربي بعد هزيمة حزيران ـ يونيو، أي بعد هزيمة «حركة القوميين العرب»، ويؤكد الصمت الذي أحاط بهذه التجربة طوال أكثر من عشر سنوات من أفول نجمها ما نشير اليه.

يبقى أن نلفت الانتباه في ختام هذه الملاحظات الى أن دراستنا المقتضبة لتجربة «حركة القوميين العرب» تبغي إعادة قراءة هذه التجربة كمادة بعد أن أحيطت بالكتمان الشديد، وبعد ما تراكم حولها الكثير من سوء الفهم والنَّزعَات الذاتية واللغط والإبهام والدراسة من زاوية شخصية، من شعور رافق كاتب هذه الصفحات ابتداءً من الفترة القليلة التي تعرف فيها الى الحركة وكانت قد لفظت أنفاسها لحظتذاك، بعد أن بهت ضوء التجربة «اللبنينية»، ربما الى أجل طويل في بلدنا وفي معظم البلدان العربية الأخرى، صار بإمكاننا أن نرى تجاربنا رؤية أكثر هدوءاً وأكثر فائدة.. وعسى أن تكون هذه السطور قد حملت شيئاً جديداً في هذا المجال.

الحواشي

(١) راجع باسل الكبيسي ـ حركة القوميين العرب ـ الطبعة الثانية ـ مجلد الهدف ـ دار العودة، ص٧٧ ـ ٧٨.
(٢)+(٣) نفس المصدر ص٧٩.
(٤) المعلومات الأساسية الواردة حول «كتاب الفداء العربي» يمكن الاطلاع عليها بالتفصيل في المرجع السابق ذكره ويمكن اعتبار كتاب الكبيسي مصدراً لا غنى عنه في أية جهود تبذل حول تجربة «حركة القوميين العرب».
(٥) راجع ليلى الحر «الفلسطينيون في لبنان» ملف النهار ـ ٣ العالم العربي اليوم ٢٠ تموز ـ يوليو ١٩٧٠ ص٥.
(٦) ليلى الحر: المصدر السابق ص٦
(٧) الكبيسي ص١٠٢ ـ ١٠٣
(٨) نفس المصدر ص١١٠
(٩) راجع ليلى الحر مصدر مذكور سابقاً
(١٠) المصدر نفسه
(١١) راجع: كزافيه بارون «الفلسطينيون.. شعباً» ص١٦ ترجمة عبد الله اسكندر دار الكاتب الطبعة الأولى ١٩٧٨

(١٢)+(١٣) راجع الكبيسي المرجع المذكور سابقاً.

(١٤) الكبيسي ص١٤٦ - ١٤٧

(١٥) المصدر السابق ص١٥٢

(١٦) يمكن العثور على نماذج لهذا الأسلوب في التفكير عند الجبهة الديمقراطية والشعبية ومنظمة العمل الشيوعي والجماعات الماركسية في سورية والعراق وغيرها.

(١٧) الكبيسي - ص ١٩٩

(١٨) الكبيسي - ص١٩٩

(١٩) راجع كزافيه بارون المرجع السابق ذكره ص ١٢١ ويقول المؤلف بأن جورج حبش ناقش مع الرئيس عبد الناصر دخول الحركة في العمل المسلح الفلسطيني، لكن ناصر نصحه بالانتظار عاماً واحداً قبل البدء بالعمليات.

(٢٠) راجع طلال سلمان: مع فتح والفدائيين - ص ٣٧. صادر عن دار العودة ١٩٦٩ - بيروت.

(٢١) المصدر السابق ص٢٣

(٢٢) المصدر السابق ص٤٦

(٢٣) راجع كزافيه بارون.. ص١٢٦

(٢٤) نفس المصدر ص ١٢٦ - ١٢٧

(٢٥) صدر بمناسبة مرور ثلاث سنوات على هزيمة الخامس من حزيران - يونيو بيان بتوقيع إحدى الجبهتين، سنحاول هنا أن نثبت البيان ونرجّح أن القارىء سيقع في حيرة إذا ما أراد أن ينسبه لإحداهما دون الأخرى تقول الشعارات:

- هزيمة حزيران - يونيو للأنظمة الوطنية الوسطية وليست للجماهير
- هزيمة حزيران - يونيو أكدت سقوط الدور القيادي للطبقة البرجوازية الصغيرة
- الكفاح الشعبي المسلح هو رد الجماهير الكادحة على هزيمة حزيران - يونيو
- الطبقة العاملة هي القادرة على وضع كافة البرامج التي تعبىء الجماهير والتي تمثل رداً تاريخياً على هزيمة حزيران - يونيو.